الفصل الرابع

ضمانات لصيانة المجتمع

من أهم ما يجب أن يهتم به المصلحون فى تربية الشباب ، وضع ضمانات لصيانة المجتمع من الخراب والدمار ، ذلك لأن التربية وحدها لا تكفى لتحقيق تلك الصيانة ، فإذا كان المربون يبذلون جهدهم لإيجاد جيل يتمتع بإيمان عميق ، وخلق رفيع ، وصلة قوية بالله – جل علاه – ثم يلتفت حوله فلا يرى إلا الفتنة ، نساء عاريات ، وصحف ومجلات تنشر الرذيلة وتوزع الدعارة ، وإذاعة وتلفاز تقدم للناس السم مغلفا بغلاف جميل جذاب ، ومسرح وخيالة تبث الخنا وتشيع الفاحشة .

يرى كل هذا فى بيته ، وفى الطريق العام ، وفى المعاهد والمدارس ، وفى الكليات والجامعات ، اختلاط تتورع عنه النفوس السوية ، وتهتك يوحى للنفس بكل أنواع الفجور ، وأزياء يبتكرها الشياطين ليزينوا للشباب الفساد ، ويهيجوا الشهوة البهيمية فى أجسامهم ، فماذا يفعل الخلق الرفيع ، والإيمان العميق أمام كل هذه المغريات ؟ وصدق الشاعر إذ يقول :

إبليس والدنيا ونفسى والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائى ؟

الله – عز وجل – خلق الإنسان ، ويعلم ضعفه ، ويقدر إمكانات مقاومته لتلك الشرور ، ولهذا وضع – سبحانه وتعالى – ضمانات لصيانة المجتمع ، وشدد على اتباعها والأخذ بها ، وهدد المخالفين لها المتهاونين فى تطبيقها ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

إن تعريض الشباب للفتنه ، ومطالبتهم بعدم الوقوع فيها ، ضرب من العبث الذى لا تقبله النفوس السوية والعقول الواعية ، إذ كيف نغرق الشباب فى بحار من اللهو ، ونطلب منهم أن يحيوا حياة الجد ؟ وكيف نغمرهم بالترف والبذخ ونرجو أن يعيشوا عيشة التقشف والشظف ؟ بل كيف نملأ أدمغتهم وأفئدتهم بالأغانى الداعرة والمسرحيات الفاجرة ونريد منهم أن يكونوا أمة مجاهدة يبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل الله ؟؟

إن حصيلة الحياة التى يعيشها الشباب لابد أن تكون من جنس واقعهم ، فلماذا نحاول مغالطة الواقع ، واستخلاص نتائج لا تترتب على المقدمات المطروحة على الشباب ؟

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

فإذا أردنا مخلصين أن نأخذ الشباب بحياة الجد ، وأن نعودهم عيشة التقشف والشظف ، وأن نكوّن منهم أمة مجاهدة تعرف حق الله عليها فتخلص له العبادة ، وحق القيادة فتمحص لها الولاء ، وحق دينها فتعمل على نشره ، وحق وطنها فتضحى فى سبيله ، إذا أردنا ذلك حقا فينبغى أن نضمن له حياة جادة طاهرة ، تعينه على أداء مهمته .

والإسلام قد رسم لنا الطريق ، وحدد لنا المعالم ، ووضع الضمانات التى تصون الشباب من الزيغ ، وتحفظ المجتمع من الانحراف .

علم الله – تبارك وتعالى – أن علة العلل فى هذه الحياة إنما تأتى الأمم بلا استثناء من قبل الانحراف عن دين الله ، واتباع خطوات الشيطان وأن أول الانحراف يدخل على الناس من قبل النساء ، لأنهن حبائل الشيطان يذل بهن كل عزيز ، ويرغم بهن كل متكبر .

فهم تلك الحقيقة أعداء الإسلام ، فركزوا على إفساد المرأة ليضمنوا فساد المجتمع بغير عناء ، وعملوا على إثارة الشهوة البهيمية ليصلوا إلى انشغال الناس بنزواتهم عن معالى الأمور ، ويضغط فرويد اليهودى على نظرية الجنس حتى يجعلها هى مصدر كل شىء فى الحياة .

ويزعم فرويد أن الجنس ينشأ مبكراً جدا ، ، ليس فى مرحلة البلوغ ويوغل فى ذلك الزعم حتى يصرح بأن الطفل يولد جنسا خالصا .

يقول الأستاذ محمد قطب وهو يفسر رأى فرويد فى الجنس : « كل أعمال الطفل تعبير عن الجنس : الرضاعة جنس ، ومص الإبهام جنس وتحريك العضلات جنس ، والتبول والتبرز جنس ، والالتصاق بالأم جنس »[1] .

والذى يلفت النظر هنا ، أن فرويد يصر على إبراز هذه النظرية ذلك الإصرار المدهش فى وقت كانت أوروبا كلها تبغض الكلام عن الجنس ، وتنظر إليه على أنه حماقة لا يجوز لعاقل أن يتكلم بها ، بل كانت تستقذره وتحتقر من يتكلم عنه .

ومما لا شك فيه أن فرويد ذلك العالم اليهودى أصر هذا الإصرار ، وهو يعلم أن الموضوع سيكون ثقيلا على قلوب الناس ومسامعهم ، ويعلم كذلك أنه ربما يحتقر ويمتهن بسببه ، ولكنه أصر وتحمل لأنه يعلم أن الغاية التى يسعى لتحقيقها لن يصل إليها إلا عن هذا الطريق .

أليست غايته إفساد الحياة ، وتحقير القيم ، وشغل الناس بمالا يفيد حتى يتمكن اليهود فى غفلة من العالم من السيطرة والتسلط ؟؟

لابد إذن أن يصر على ذلك ، ليخرج الناس من التقوقع الذى يعيشون فيه ، ويجرؤهم على الخوض فى حديث الجنس ، ليكون ذلك تمهيدا لممارسته عمليا وبغير استحياء .

وقد تم له ما أراد ، وأصبحت أوروبا كلها ماخورا ، ليس للناس فيه إلا الحديث عن الجنس ، والبحث عن الجنس ، وممارسته العملية الجنسية .

كان فرويد يعنى ذلك ويقصده ، يوم جعل الجنس هو كل شىء فى الحياة ، نعم ، كان يعنى ذلك ويقصده ، لأنه يعلم أن الناس لو شغلوا بالجنس ، وأصبحت غايتهم محصورة فى الجنس ، أصبح من اليسير على اليهود توجيه العالم كما

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ٤٨

يشاءون عن طريق الجنس ويصبح الجنس هو الورقة الرابحة على موائد المقامرين ، يملكون بها الدنيا ، ويفسدون حياة الناس العامة والخاصة .

فمن أجل الجنس تسرق الأموال ، ومن أجل الجنس تخان الأمانات ومن أجل الجنس يضحى بالشرف والكرامة ، ومن أجل الجنس تطأطىء أعناق الرجال ، ومن أجل الجنس تخون المرأة زوجها ، ومن أجل الجنس تبذل المرأة عرضها ، ومن أجل الجنس يجب التضحية بكل القيم والفضائل والأخلاق ، فماذا بقى للناس ؟؟

تلك هى النتيجة الحتمية لشغل الناس بالجنس ، وجعله موضوعا يتناوله العلماء بالبحث ، ليأخذ صفة البحث العلمى ، وتتحقق فيه خصائصه ، فيتلقفه الناس على أنه حقائق يجب ألا يخجل منها الناس ، والكلام فيه كلام موضوعى ليس من الهراء ولا من المحقرات .

وترسيخا لهذا المعنى فى أذهان الناس تؤلف الكتب ، وتصنف المصنفات ، وتكتب القصص ، وتخرج المسرحيات ، ويطرح ذلك كله فى الأسواق عفنا قذرا تفوح منه رائحة الجنس ، ويتنافس الناس على شرائه أكثر مما يتنافسون على شراء الدواء للمرضى والخبز للجائعين .

وهكذا تتحطم كل مقومات الإنسانية ، وتنهار كل معالم الحضارة ، وتتلاشى من حياة المجتمع كل القيم والأخلاق من أجل إشباع الميل الجنسى فى الإنسان .

ومما لا شك فيه أن الفراغ الروحى هو أهم العوامل فى تصعيد موضوع الجنس فى هذا العصر ، فقد انصرف الناس عن الدين ، وجعلوه دبر آذانهم ، وانشغلوا بملذات الدنيا وشهواتها ، فخوت قلوبهم من الصلة بالله – عز وجل – وخلت حياتهم من ألوان العبادة التى كانت تربطهم بخالق السماوات والأرض ، فلم يعد هناك مراقبة ، ولم يعد هناك خوف ، فسكن الشيطان تلك القلوب الخاوية ، وعشش فى هذه النفوس الفارغة ، فباض و أفرخ ، ونفث سمومه فى جوانب الحياة المختلفة ، فأفسدها على الناس ، ولم يدع لهم طريقا يرجعون منه إلى ما فقدوا من القيم والأخلاق والفضائل .

ومن أجل العودة إلى الحياة الطاهرة التى يرشدها الإسلام ، ومن أجل إنقاذ الدنيا من الحياة العفنة التى انغمس فيها الناس ، وضع الإسلام تلك الضمانات :

١ - ملء الفراغ :

الفراغ كما ذكرت هو أهم عوامل السعار الجنسى الذى سيطر على الناس ، وأكبهم على وجوههم ، وجعلهم يفقدون آدميتهم ، ويلهثون وراء الحياة البهيمية التى استمرءوها ، وأفنوا حياتهم فى سبيلها وسواء كان ذلك الفراغ ماديا أم روحيا فإنه ذو أثر سيىء فى تشكيل الحياة التى يعيشها الناس الآن اجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا ذلك لأن الفراغ مفسدة لا يبتلى بها مجتمع إلا كانت مصيبته فى أعز عزيز لديه أهون منها .

فالفراغ المادى يؤدى إلى الانحرافات السلوكيه التى تؤدى بالمجتمع فبسببه تشكل العصابات التى تسطو على الناس ، فتسرق أموالهم ، وتسلب أعراضهم ، وتدنس شرفهم وكرامتهم .

على أننا يجب أن نعلم أنه لا فراغ فى الحقيقة ، فحيث لا يشغل الإنسان نفسه بالنافع المفيد تجده مشغولا بالفساد والإفساد فالفراغ الذى نقصده إنما هو الفراغ من الخير ومن كل عمل يعود على المجتمع بالنفع والفائدة .

وحين يتوفر هذا الفراغ للإنسان تتوفر لديه عوامل الهدم والتخريب . وتركب رأسه الشياطين ، فلا يفكر إلا فى الشر ، ولا يتحرك إلا للتدمير .

والفراغ الروحى أسوأ أثرا فى النفس البشرية من الفراغ المادى لأن هذا النوع من الفراغ عندما يبتلى به الإنسان - والعياذ بالله - يفقد آدميته ، ويتحول إلى حيوان يخطط ويدبر لحيوانيته دون أن يكون هناك حدود يقف عندها .

فالفراغ المادى قد تحده الحياة الزوجية التى يتمتع بها الإنسان ، فإذا سولت له نفسه أن يفسد تذكر قدرة الله عليه فأقلع وثاب إلى رشده ، وإذا انحرف سلوكه وضل غايته ، فسرعان ما يلتمس الهدى والرشاد بتوجهه إلى مصدر الغذاء الروحى الذى يقوم سلوكه ، ويلهمه رشده .

فماذا الذى يحدد مسيرة الإنسان إذا أصيب بالفراغ الروحى ؟

إن شغل الفراغ مطلقا سواء كان ماديا أم روحيا بما يفيد الإنسان هو العلاج الوحيد لذلك الداء الوبيل ، وهو عامل مهم جدا من عوامل التطوير والتمدن فى المجتمع الإنسانى الكبير .

ونحن – المسلمين – ندرك هذا المعنى ، ونعرف أبعاده ، والإسلام قد وضع المنهج ، وحدد لنا الأسلوب الذى نتعامل به فى هذا المجال بحيث لا يشعر المسلم بالفراغ ، ولا يعرف الفراغ إلى نفسه سبيلا .

فالصلاة المتكررة فى اليوم خمس مرات موزعة على النهار وأطراف الليل بشكل يجعل الإنسان لا تنقطع صلته بالله إلا عادت أشد تعلقا وأقوى استمساكا .

وذكر الله – عز وجل – الذى أُمِرْنا به فى كل الأحوال : فى الليل والنهار ، فى السراء والضراء ، فى المسجد والسوق ، عند البيع والشراء ، عند الأكل ودخول الخلاء ، وعند النوم والاستيقاظ ، هذا الذكر الذى لا يفتر عنه لسان المؤمن وقلبه يعطينا شحنة روحية قوية تملأ فراغنا بما يحيط الحياة بسياج قوى من الأخلاق والفضائل ، وتدفع المسلم إلى بذل جهده فى جلب الخير ودفع الشر عن المجتمع الذى يعيش فيه .

واختيار الأصدقاء الصالحين ، والتعاون معهم على البر والتقوى ، ومد يد العون للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ، والنهوض بالمجتمع ببناء المدارس ، وتشييد المساجد ، وإنشاء المشافى ، والإسهام فى المشروعات التى تساعد على التنمية ، كل ذلك من أساليب سد الفراغ .

والقراءة المفيدة التى تشبع رغبة العقل ، وتنمى المواهب والفكرَ ، وتبصر الإنسان بالحياة الصحيحة التى يجب عليه أن يعرفها ، وتدله على الطريق السوى الذى ينبغى له أن يسلكه تجاه ربه ودينه ووطنه ، وعن طريقها يميز بين الخير والشر والنافع والضار .

والرياضة التى يمارسها الإنسان بأنواعها المختلفة مثل السباق والرمى ،

والسباحة والمصارعة ، والكرة ورفع الأثقال إلى غير ذلك[1] .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله برنامج الإسلام الاقتصادى الذى يكفل لكل إنسان حق العيش بكرامة وإباء ، والذى يوفر العمل للعاطلين ، فلا يدع رجلا قادرا على العمل إلا ويشغله بما يحقق له رغد العيش ، ويعود على المجتمع بالخير والهناء ، وليست قصة الرجل الذى أعد له الرسول ﷺ القدوم بيده ، وأمره بأن يذهب فيحتطب ، حتى عاد بعد خمسة عشر يوما وقد حصّل أضعاف ما كان معه قبل أن يعمل ببعيدة عن الأذهان .

وفوق ذلك كله فإن الإسلام قد فرض على هذه الأمة الجهاد ، وجعل فيه عز الدنيا وسعادة الآخرة ، وشغل المسلمين به ، حتى لم يعد فى حياتهم شىء يعرف بالفراغ ، فهم فى غزو لا ينقطع مادام فى الدنيا إسلام وكفر ، والأمة المجاهدة متأهبة دائما للعمل ، مستعدة فى كل وقت لملاقاة الأعداء ، فهى نفسيا مشغولة بعظائم الأمور ، وهى ذهنيا تخطط وتدبر لكسب المعارك والتغلب على العدو ، وهى جسميا فى تدريب مستمر حتى لا تفتر العزائم ، ولا تهن القوى فهل بعد ذلك كله فراغ يعرفه المؤمنون ؟؟؟

والمتأمل فى برنامج ملء الفراغ فى الإسلام يدرك أنه برنامج شامل يتناول حياة الإنسان من جوانبها المختلفة ، ويراعى فى كل فرد ميوله ورغباته ، فهو يعالج الجانب الروحى بقدر ما يعالج الجانب العقلى والجسمى ، ويعدد أنواع العلاج وأساليب التربية حتى يأخذ كل إنسان منها ما يناسبه ، وينتقل حيثما تستريح نفسه فإذا مل هذا النوع ، تركه ومال إلى غيره .

وهكذا يقضى الإسلام على الفراغ ، ويملأ حياة المسلم بمالا يدع له فرصة يتسلل من خلالها شياطين الإنس والجن بوسائلهم التى تفسد عليه حياته ، وتتركه نهبا للتفكير المدمر ، وفريسة للأفكار الهدامة المخربة ولقمة سائغة للجنس الذى أصبح أملا يتطلع إليه الناس على اختلاف نحلهم وميولهم .

---

(١) يراجع ذلك بالتفصيل فى القسم الأول من هذا الكتاب ، وفى كتابنا (الترويح فى المجتمع الإسلامى)

٢ - التستر والاستحياء :

ومن أهم الضمانات التى وضعها الإسلام لصيانة المجتمع التستر والاستحياء بمعنى عدم إبداء المرأة زينتها للرجال الأجانب لأن فى إبداء الزينة إغراء للرجال ، وإثارة لمكامن الشهوة فيهم ، وذلك هو التبرج المقيت الذى نهى عنه القرآن الكريم ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾(١) .

والمرأة عندما تتبرج ، وتبدى زينتها بإظهار مفاتنها ، وتكسرها فى مشيتها ، وخضوعها فى حديثها ، تثير غرائز الرجال ، وتلهب قلوبهم بنزوات الشهوة فتطيش عقولهم ، وينحصر تفكيرهم فى المحاولات التى يتمكنون بها من إشباع ميولهم الجنسية ، وتلبية رغباتهم البهيمية ، ويصبح المجتمع غابة لا تجدى فيها النظم ولا تسيطر عليها القوانين .

إن الرجل بفطرته ميال إلى الجنس الآخر و قد خلق الله - تبارك وتعالى - فيه هذا الميل قويا عنيفا ، فهو ينتبه ، وتستيقظ غرائزه لمجرد سماع صوت المرأة أو إحساسه بمشيتها ، فكيف إذا رأى منها مالا يحل له رؤيته ؟

ولا شك أن المرأة عندما تتزين تكون أكثر جاذبية للرجال ، وأشد فتنة لهم ، والزينة تضفى على المرأة جمالا يزيد فى حسنها ، بل تصيرها حسناء مهما كانت دميمة شوهاء ، وهى بإبداء زينتها توقع الرجال فى حبائلها ، وتفتح عليهم أبوابا من الشر لا قبل لهم بإغلاقها .

ولهذا نهى القرآن الكريم عن إبداء الزينة ، فقال - جل من قائل - : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ... ﴾ الآية(٢) .

فالمرأة تبدى زينتها لزوجها ، وتتزين كما تشاء فى بيتها ، ولكن حذار أن تتجاوز بذلك باب دارها ، فإنها إن فعلت ذلك تقبل على الناس فى صورة

---

(١) سورة الأحزاب : الاية ٣٤ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٠ .

شيطان ، وتدبر عنهم فى صورة شيطان ، وناهيك عما يفعله الجمال والزينة والشيطان فى قلوب الرجال .

ومن أجل هذا فرض الإسلام الحجاب ، وأغلق نوافذ الفتنة ، فحرم النظرة النهمة ، وجعلها سهما من سهام إبليس الفتاكة ، كما حرم لمس النساء ، وأخبر أن مس الخنزير الملوث بالقاذورات خير للمؤمن من مس المرأة الأجنبية ، وذلك لأن مس الخنزير الملوث تنفر منه النفوس وتأباه ، وتتورع عن فعله ، أما مس المرأة الأجنبية فإنه محبب إلى الإنسان ويشعل نار الشهوة فى قلبه ، ولا يدعه حتى يقع فى الحرام ، وينتهك أعراض الناس .

ومن أجل هذا أيضا أمر الله – عز وجل – بالاستئذان عند دخول البيوت حتى لا تقع عين الإنسان على عورات الناس ، ومن أشد العورات التى ينبغى التحرز منها حريم الرجل وبناته حيث تكون الغيرة عليهن أشد ، و الحرص على صيانتهن أقوى .

ولكى يحكم إغلاق تلك النوافذ استحب أن يستئذن الرجل حتى على أمه وأخته ، وقد سئل ابن مسعود وابن عباس – رضى الله عنهما – أأستئذن على أمى ؟ أأستئذن على أختى ؟ فأجابا ، نعم ، أتحب أن ترى منها ما تكره ؟

وذلك لأنه إذا دخل الرجل بغير استئذان ، ولو كان على بيته فقد يرى عورة تثير فى نفسه الغريزة ، وتحرك فى قلبه الشهوة ويظل ذلك التفكير يطارده حتى يقع فى الحرام أو يقاربه ، وليس ذلك ببعيد فكثيرا ما تطالعنا الجرائد الأجنبية بارتكاب جريمة الفاحشة من رجل مع ابنته أو ولد مع أمه أو أخته ، وقد تكرر ذلك كثيرا ، وحدث فى بعض البلاد الشرقية التى أباحت السفور ، وحرمت الحجاب ، فالشهوة هى الشهوة ، ومالم تلجم بالروادع القوية التى حددها الإسلام فليس لها رادع .

٣ – تحريم الخلوة والاختلاط :

الإسلام يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية مهما كان الرجل تقيا ورعا ، ومهما كانت المرأة دميمة شوهاء ، لأن الميل الجنسى فى كل منهما خليق بأن يدفع كلا

منهما نحو الاخر ، وتلك غريزة تقرب بين المتباعدين متى تمت الخلوة ، وخلا الجو ، وتهيأت الدوافع .

ولا يستطيع إنسان أن يقول : إنه قادر على ضبط عواطفه ، وإلجام غرائزه فلا بأس حينئذ بأن يخلو بمن يشاء ، لأن ذلك وهم وخداع ، ولا يستطيعه إلا المعصومون من الآدميين .

إن فطرة الرجل تتمرد عليه ، و تتحدى قواه العقلية والأخلاقية متى وجدت الخلوة ، وتهيأت الظروف ، وكذلك المرأة بل هى أضعف أمام غرائزها من الرجل ، ولولا الحياء الذى سلحهن الله – عز وجل – به لرأينا منهن العجب العجاب .

ومن أجل هذا يحذر الرسول ﷺ من الخلوة ، ولو كانت مع أقرب الأقربين مادامت المرأة تحل للرجل ، بل يكون التحذير أشد كلما كانت درجة القرابة تتيح للرجل أن يدخل على المرأة بغير محرم ولا استئذان ، كابن العم وابن الخال ونحوهما وكأخ الزوج المعروف بالحمو ، فإن هؤلاء وأمثالهم تتوفر لهم فرص الدخول على النساء تحت حماية تلك القرابة وقد يكون البيت خاليا إلا من الزوجة ، وعندئذ تتم الخلوة ، ويجد الشيطان الفرصة فيزين أحدهما للآخر حتى يقع المحظور .

يقول ﷺ : « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » تلك حقيقة واقعة ، ولو تصور الإنسان تلك المعادلة : خلوة + رجل + امرأة + شيطان = .. فلابد أن يدرك النتيجة مهما بلغت بلاهته ومهما كانت درجته قواه العقلية من الضعف والسذاجة .

ولهذا يأتى التحذير بتلك الصورة القاطعة والتى لا تقبل التأويل ، بقوله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال ﷺ : « الحمو الموت ، الحمو الموت ، الحمو الموت »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

نعم إنه الموت الخفى ، لأنه يدلف إلى البيت بغير حسيب ولا رقيب . ويتمكن من الخلوة فى ظل القرابة القريبة ، وهناك يجد طريقه إلى قلب المرأة ، وعندئذ يكون الموت أحب إلى النفس فرارا من العار الذى يلحقها .

ويدخل فى هذا الباب أصدقاء العائلة كما يسمونهم وهم أولئك الذين يعتادون زيارة البيوت من حين لآخر مع أرباب تلك البيوت حتى تصبح وكأنها بيوت لهم يأتونها متى يشاءون ، وتتعود الزوجة والبنات رؤيتهم فى المناسبات وغير المناسبات ، وترفع الكلفة بينهم ، وتزول الحواجز ويتم اللقاء فى غيبة الزوج أو الأب ،وأكثر ما يكون ذلك فى حال سفره أو مرضه بحجة قضاء الحاجات ، والتعرف على أحوال أهل البيت ، ويغلفون ذلك بأنه وفاء بحق الصديق الغائب أو المريض ، وهو ولا شك غلاف براق معجب فى ظاهره ، ولكنه يكمن الشيطان خلف كل حركة أو سكنة فى باطنه ، ويترتب عليه فى النهاية تقطيع الروابط الزوجية ، بإثارة الريبة فى قلب الزوج الذى لا ينتبه لهذا الخطر إلا بعد فوات الأوان .

إن أسطورة صديق العائلة التى سادت الآن فى جميع الأوساط ، وتفشت بصورة مخيفة تهدد الروابط الأسرية ، والعلاقات الزوجية يجب أن تختفى تماما فى المجتمعات الإسلامية ، وذلك لأنها نوع خطير من المخادنة التى حرمها الإسلام ، ونزه عنها المسلمين .

لا بأس بأن يكون هناك صديق للعائلة ، ولا بأس بأن يتفقد البيت ، ويقضى لأهله مصالحهم فى غيبة الزوج ، ولكن بشرط أن يكون ذلك مع محرم أو من خارج البيت بحيث يقف على الباب الخارجى ، ويطرقه بطريقة عادية ، ويخاطب أهله من خلف الباب ، فإذا قام بما يجب فى مثل هذه الحال ، انصرف مسلِّما بغير مصافحة ، ودون أن يرى أحدا من النساء .

وكثيرا ما تنشأ الخلوة عن الاختلاط ، ذلك البلاء الذى ركز عليه أعداء الإسلام حتى يسروه على الناس كل الناس بغير استثناء إلا من رحم ربى ، وحتى أصبح الذين لا يخالطون ، وينعزلون عن تلك العادات القبيحة رجعيين متخلفين ، ينقصهم الذوق الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون حكما فى مثل تلك المسائل .

ولست أدرى ، ولا أعرف أحدا يدرى ، ماذا يقصدون بذلك الذوق الاجتماعى الذى يريدون تحكيمه فى حياتهم ؟ هل هو نظام كونى فطر عليه الناس ؟ أم هو قانون اصطلح عليه العقلاء منهم ؟ أم هو انحراف نشأ فى سلوك المجتمعات نتيجة عوامل وأفكار طارئة على أوضاع هذه المجتمعات ؟؟

والمتأمل فى ذلك الذوق الذى ألّهوه ، واتخذوه مقياسا يعرفون به مقدار ما بلغت المجتمعات من التقدم أو التأخر يوقن أنه مجموعة من الانحرافات الطارئة على هذه المجتمعات ، إذ أنه لو كان نظاما كونيا لما خلا منه مجتمع قط ، ولو كان قانونا تعارف عليه العقلاء من الناس لما أنكره العقلاء فى كل جيل ، ولكن أرباب الذوق الاجتماعى المزعوم لا يعترفون بذلك ، ولا يقولون به مخالفين ضمائرهم وعقولهم فى الحكم على ذلك الذوق الذى ابتدعوه ، بل مخالفين فى ذلك إجماع الأجيال السابقة على إنكار الاختلاط ، وعده من المنكرات ، رغم اختلاف هذه الأجيال فى المستوى الحضارى ، والرقى الفكرى ، والمذاهب العقيدية ، ورغم اختلافها كذلك فى البيئات والظروف والعصور .

ومن المعروف أن الاختلاط بين الجنسين أمر بغيض عند الأمم السابقة التى لم تدرك ذلك العصر ، سواء منها من يمنع الاختلاط ترفعا عن مخالطة جنس أدنى منه ، أم يمنعه عرفا وعادة ، أم يمنعه تدينا وعبادة .

ولو أننا استثنينا ما كان يحدث شذوذا فى تلك المجتمعات من الاختلاط غير المباح لاستطعنا أن نحكم بأن الاختلاط كان منبوذا بالإجماع فيها .

إن الاختلاط إذا لم يكن محرما شرعا لكان محرما طبعا ، إذ أن طبيعة الإنسان السوى ترفض أن يخالط أمه أو أخته أو بنته أو زوجته شخصا لا يحل لها مخالطته ، ولذلك رأينا من يقتل أمه أو أخته أو بنته أو زوجته نتيجة لذلك الاختلاط ، وما يجره على الناس من العار والشنار .

ولا يستطيع أحد أن يقول إن الذين يرتكبون جريمة القتل فى تلك الظروف أناس شواذ لا يقاس عليهم ، ولا يعتبر وجودهم فى المجتمع مصدرا تبنى عليه أحكام قاطعة ، لأن هؤلاء هم الأغلبية الساحقة فى كل مجتمع سوىّ يحترم نفسه ،

ويعرف قيمة المحافظة على الأنساب ، والحق أن الذين لا يفعلون ذلك مع تأكدهم لما يحدث فى بيوتهم من الاختلاط والمضاجعة هم الشواذ الذين تبلدت أحاسيسهم وماتت أريحيتهم ، وأصبحوا فى حالة أدنى وأحقر من بعض الحيوانات .

وليس أدل على ذلك من أن الشرع لا يقضى بقتل من قتل رجلا رآه فى وضع مريب مع زوجته ، بل إن المحاكم التى هى من صنع ذلك المجتمع لا تحكم بالقتل على من قتل رجلا أجنبيا وجده فى بيته مع زوجته ، أليس ذلك كافيا للحكم على الاختلاط بأنه جريمة بشعة لا يقبلها الشرع ولا العرف ولا الذوق السليم .

إن الاختلاط فطرة حيوانية يجب أن يترفع عنها الإنسان لما فيه من الخصائص والميزات التى تسمو به عن ذلك المستوى ، فالعقل الذى خص الله به الإنسان ، وميزه به على غيره يرفض أن يشاركه غيره فى أموره الخاصة إلا أن تكون نصيحة من ناصح أو مشورة من مستشار .

على أن بعضَ الحيوانات – كالأسود – تأبى أن تخالط زوجاتها غيرها من الحيوانات ، ولو حاول أسد آخر أن يحوز زوجة غيره لم يتمكن من ذلك ثم تكون بينهما معركة عنيفة لا تنتهى إلا بموت أحدهما ، فإذا كان الأمر كذلك فى بعض الحيوانات فكيف يقبل الإنسان أن تخالط زوجته غيره وهى عِرضُه وشرفه وأغلى ما يملك فى حياته ؟

إن الله – عز وجل – قد كرم الإنسان ، وأفرده بخصائص ، من أهمها حماية العرض والدفاع عنه ، ومن إكرام الله – سبحانه وتعالى – للإنسان أن حبب الزوجة إلى نفسه ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، وهذا الحب وتلك المودة والرحمة تقتضى ألا يشارك أحد من الناس أحدا فى زوجته ، وإلا صارت حيوانية وخلت من الإنسانية ، ولتحقيق ذلك أودع الله قلب الإنسان الغيرة على زوجته مهما كان ضعيفا ، ومهما كانت قدراته على الدفاع عن أهله .

ولهذا لم يألف الإنسان تلك العادة السيئة الذميمة إلا بعد جهد مضن وتجارب مريرة ، ومع ذلك فإن الذين ألفوها وصارت عادة لهم يرفضونها بالنسبة لزوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم ، وتأبى عليهم إنسانيتهم أن يتساهلوا فى ذلك

أو يسلموا به إلا من شذ وتبلد ، وتحول إلى تيس لا يرى بذلك بأساً .

إن تحريم الخلوة والاختلاط إنما هو وقاية للمجتمع من الانحرافات ، ليستمر فى مسيرته الخيرة ، ويواصل جهوده فى بناء الفرد الصالح الذى هو اللبنة القوية فى المجتمع الإنسانى ، والإسلام لم يحرم الخلوة والاختلاط فى المجتمع الإسلامى فقط ، ولكنه يحرمهما فى كل المجتمعات على حد سواء ، وذلك لأن الاختلاط بين الجنسين أشبه ما يكون بالحمى الوافدة التى لا تستقر فى مكان ، ولا ترضى بأن يكون لها وطن لا تتعداه ، فعدوى الاختلاط سريعة التنقل ، ونحن لا نأمن من إن أصيب بها مجتمع مجاور أن تتخطاه متحدية إلى المجتمع الكبير ، وكما أن الحمى لا تميز بني القوى والضعيف فالاختلاط كذلك لا يميز بين المسلم وغيره ، بل يشيع وينتشر فى كل الأوساط مادامت الظروف مهيأة ، والنفوس متقبلة .

لأجل هذا حرمهما الإسلام ، لينشأ الشباب على الفضيلة ، ويتربوا على مكارم الأخلاق والعفة ، وليطهر المجتمع من الرذائل ، وتصبح الأمة قوية عزيزة مرهوبة الجانب عظيمة السلطان .

وبهذا يكون الإسلام قد عالج المشكلة بطريقة موضوعية ، وقدم للشباب نماذج تربوية عالية ، حين عرف الداء وشخصه ، وقدم الدواء بناء على دراسات نفسية واجتماعية ، فأحاط الشباب بالرعاية منذ طفولتهم ، ونشأهم على الفضائل وهم لا يزالون صبيانا ، حتى إذا شب الطفل وترعرع أخذ بيده إلى المسجد ليتربى هناك تربية أخلاقية ودينية ، ورسم له منهج التربية متكاملا فأغلق نوافذ الشيطان إلى قلبه حتى لم يعد هناك باب يمكنه الولوج منه ، ووضع له الضمانات اللازمة لسلامته فملأ الفراغ الذى يعكر عليه صفو الحياة ومباهجها ، وأمر بالتستر وعدم إبداء الزينة لئلا يتعرض للفتن والمحن ، وحرم الاختلاط والخلوة ليتفرغ لما يكلف به من مهام الأمور وعظائمها .

ولقد أثمر هذا المنهج الرشيد ثمرة ملأت الدنيا سعادة وفلاحا ، وعمت الأرض خيراتها من مشرقها إلى مغربها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، و إن الله لمع المحسنين ﴾[1] .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .